رأى فى تفسير الشواذ فى لغة العرب

للدكتور رمضان عبد التواب

كثيرا ما تقابلنا فى كتب النحو العربى عبارة : « وهى لغة شاذة[1] » . وقد اجتهد علماء العرب ، فى تعريف هذا الشاذ ، وحصر أمثلته المختلفة[2] ، غير أنهم لم يذكروا شيئا عن الأسباب ، التى تؤدى إلى وقوع الأمثلة الشاذة فى لغة من اللغات .

وقبل أن نعرف شيئا عن أهم الأسباب ، التى يحدث من أجلها الشاذ فى اللغة ، نود أن نؤكد هنا شيئا ، فرغ منه المحدثون من علماء اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهو أن اللغة كائن حى ؛ لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم من الأحياء[3] ؛ وهى لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن ، فهى عبارة عن سلسلة متلاحقة الحلقات ، يسلم بعضها إلى بعض ، وكل حلقة منها تتكون من مجموعة من الظواهر المطردة القواعد ؛ لأن كل لغة لابد لها من منطق معين ، حتى تصلح لكى يتفاهم بها أهلها . وهذا المنطق هو مانطلق عليه اسم : « القواعد المطردة » .

غير أننا نلحظ فى كل حلقة من حلقات التطور اللغوى[4] ، أمثلة شاذة[5] ، عن تلك القواعد المطردة . ويرجع السبب فى وجودها فى اللغة ، فى غالب الأحيان ، إلى واحد من ثلاثة أمور : فإما أن تكون تلك الشواذ ، بقايا حلقة قديمة ، ماتت واندثرت ،

---

(١) انظر مثلا : شرح ابن عقيل ١/٧١ ، ١/٧٥ ، ١/٧٩ ، ١/١٢٤ ، ١/١٣٠ ، ١/٢٠٦ ، ١/٢٧١ ، ١/٤٢٦ ، ٢/١٢ ، ٢/٣٨ ، ٢/١٨٨ ومعانى القرآن للزجاج ١/٥٥ والعينى على هامش الخزانة ٤/٩٤ والمرتجل لابن الخشاب ٢٦ وغير ذلك .

(٢) انظر فى ذلك : الخصائص ١/٩٦ ، ١/١١٦ ، ١/٢٦٦ والاقتراح ٢٠ والأشباه والنظائر ١/٢١٤ والمزهر ١/٢٢٦

(٣) انظر مثلا : ماكتبه « يسبرسن » O. Jespersen عن « حياة اللغة » فى مقدمة كتابه : Die Sprache

(٤) التطور اللغوى لايعنى عند علماء اللغة المحدثين أكثر من التغير من حالة إلى حالة ، فكلمة التطور ترادف عندهم كلمة التغير ، ولا تدل على ارتقاء الظاهرة اللغوية بحال من الأحوال .

(٥) المراد بالشذوذ هنا هو عدم الاطراد . ولا يرتبط ذلك عند المحدثين من علماء اللغات بحسن أو قبح .

وهو مانسميه نحن : « الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة » .

وإما أن يكون هذا الشاذ بداية تطور جديد ، لظاهرة من الظواهر ، تسودحالقة تالية ، وتقضى على سلفها فى الحلقة القديمة . وإما أن يكون ذلك الشاذ ، شيئا مستعاراً من نظام لغوى مجاور .

وكل مثال شذ لسبب من الأسباب الثلاثة السابقة ، على القواعد المطردة فى حلقة من حلقات التطور اللغوى ، إنما كان مطردا فى بيئته ، ومتوافقا مع القواعد السائدة فى تلك البيئة ؛ فالركام اللغوى ، إنما كان أمرا مطردا فى تلك الحلقة ، التى بادت واندثرت . وبدايات التطور فى ظاهرة من ظواهر اللغة ، نراها سائدة مطردة بعد ذلك فى حلقتها الجديدة ، التى آلت إليها لغة من اللغات . وكذلك تلك الأمثلة المستعارة فى أية لغة ، من نظام لغوى مجاور ، هى شاذة هنا ، غير أنها قد تكون مطردة تمام الاطراد ، فى ذلك النظام اللغوى المجاور .

واصطلاح « الركام اللغوى » اصطلاح صنعناه نحن ، قياسا على مصطلح « الركام الحجرى » ؛ ذلك المصطلح الجغرافى ، الذى يعنون به تلك الأحجار ، التى تجرفها السيول والانهيارات الثلجية ، من مكان إلى مكان .

أما نحن فنعنى بمصطلحنا : « الركام اللغوى » بقايا الظواهر اللغوية المندثرة ؛ لأننا نعتقد أن الظواهر اللغوية الجديدة ، لاتمحو الظاهرة القديمة بين يوم وليلة ، بل تسير معها جنبا إلى جنب مدة من الزمن ، قد تطول وقد تقصر ، وهى حين تتغلب عليها ، لاتقضى على أفرادها قضاء مبرما ، بل يتبقى منها بعض الأمثلة التى تصارع الدهر ، وتبقى على مر الزمن .

ومن أمثلة ذلك : مراحل تطور الأفعال المعتلة فى اللغة العربية ، وأخواتها اللغات السامية ؛ فقد تركت بعض هذه المراحل ركاما لغويا فى تلك اللغات هنا وهناك . ونعنى بالأفعال المعتلة : ماكان منها (أجوف) مثل : قال ، وباع ، وخاف ، وطال . أو (ناقصا) ؛ مثل : دعا ، وقضى . أو من نوع (اللفيف المقرون) ؛ مثل : رَوَى ، وهوى ؛ فإن كل هذه الأفعال ، وما شابهها بصورتها التى ذكرناها هنا ، تعد آخر مرحلة من مراحل تطورها فى اللغات السامية .

أما أولى هذه المراحل ؛ فإنها كانت : قَوَلَ ، وبَيَعَ ، وخَوِفَ ، وطَوُلَ ، ودَعَوَ ، وقَضَيَ ، ورَوَيَ ، وهَوَيَ ، على نمط الصحيح تماما . وهذه المرحلة بقيت كما هى فى الحبشية ، فى بعض الأفعال الجوفاء ، وفى كل الأفعال الناقصة ، أو من نوع اللفيف المقرون[1] ؛ مثال الأجوف فيها :

dayama «دان» ؛

bayama «تحقق». ومثال الناقص :

sahawa «صحا» ؛

ramaya «رمى» . ومثال اللفيف المقرون :

dawaya «مرض» ؛

rawaya «رَوِيَ» .

وقد بقيت من هذه المرحلة ، عدة أفعال فى العربية ؛ مثل : «عَوِرَ» بمعنى : فقد إحدى عينيه ؛ و «حَوِرَ» ، والحَوَرُ : نقاء بياض العين واشتداد سوادها ؛ و «هَيِفَ» بمعنى : ضَمُرَ بطنه ؛ و«استحوذ» فى مثل قوله تعالى : «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله» (المجادلة ١٩/٥٨) ، و «استَنْوَقَ الجَمَلُ» ، وهو مثل عربى ، يقال إن «طرفة بن العبد» هو أول من قاله ، حين سمع «المتلمس» ينشد شعرا له ، ويقول فيه :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره
بناج عليه الصَّيْعَرِيَّة مِكْدَمِ

والصيعرية : سمة للنوق ، فجعلها المتلمس للجمل ؛ وسمعه طرفة ينشد البيت ، فقال : استنوق الجمل ، فضحك الناس ، وسارت مثلا[2] .

أما المرحلة الثانية فى تطور هذه الأفعال المعتلة ، فهى مرحلة التسكين ، أو ضياع الحركة بعد الواو والياء للتخفيف ، فيصبح الفعل على نحو : قَوْلَ ، وبَيْعَ ، وخَوْفَ ، وقَضَيْ ، ورَمَيْ . . . إلخ .

وقد فطن العلامة «ابن جنى» بحسه اللغوى ، إلى ضرورة وجود هذه المرحلة ، فى طريق تطور الأفعال المعتلة ؛ فقال : «ومن ذلك قولهم : إن أصل قام : قوم ، فأبدلت الواو ألفا ، وكذلك : باع ، أصله : بَيَعَ ، ثم أبدلت الياء ألفا ، لتحركها وانفتاح ماقبلها . وهو لعمرى كذلك ، إلا أنك لم تقلب واحدا من الحرفين إلا بعد أن أسكنته استثقالا لحركته ، فصار إلى : قَوْمَ وبَيْعَ[3] » .

---

(١) انظر : Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache, S. 163-165

(٢) انظر : الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ٩٢

(٣) الخصائص ٢/٤٧١-٤٧٢ وانظر كذلك : شرح مراح الأرواح ١٢٢

وقد بقيت هذه المرحلة عند قبيلة طيء ؛ فقد روى لنا عنها أنها تقول مثلا: «حُبْلَىْ» و «أفْعَىْ» و «هُدَىْ» وماشابه ذلك ،فى الوصل والوقف : [1] وأغلب الظن أن الراجز الذى قال :

وفرجٍ منكِ قريبٍ قد أتَىْ

وزميله الذى قال :

يمنعهنَّ اللهُ ممن قد طغَىْ

إنما كانا من شعراء هذه القبيلة كذلك [2] .

ولعل هذه الظاهرة كانت شائعة عند قبيلة « هذيل » كذلك ؛ لأنهم كانوا عندما يضيفون المقصور إلى ياء التكلم ، فى مثل : « هُدَايَ » و «هَوَايَ» وغيرهما ، يقولون: هُدَيَّ (= هُدَىْ + يَ) ، وهَوَيَّ (= هَوَىْ + يَ) وغير ذلك . وعلى لغتهم جاء قول أبى ذؤيب الهذلى :

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهمُ . فتُخُرِّمُوا ولكلِّ جنب مصرعُ [3]

كما أننا نلاحظ أن تسكين الوسط للتخفيف روى لنا فى العربية كثيراً ، وقالوا عنه إنه « لغة بنى بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم [4] » كما يروى عن قبيلة ربيعة كذلك. [5]

ومن أمثلته قول القطامى :

إذا هَدْرَت شقاشِقُة ونَشْبَتْ

له الأظفار تُرْكَ له المُدَارُ [6]

وقول القطامى كذلك :

ألم يُخْزِ التفرُّق جُنْدَ كسرى

ونُفْخُوا فى مدائنهم فطاروا [7]

وقول الأخطل :

وماكلُّ مغبونٍ ولو سَلَفَ صَفْقُهُ

براجعٍ ماقد فاته بِرَدَاد [8]

وقول الأخطل كذلك :

فان أهجُه يَضْجَرْ كماضَجَرَ بازلٌ

من الأدم دَبَرَتْ صفحتاه وغاربُه [9]

وقول الشاعر :

وقالوا ترابيٌّ فقلت صدقتمُ

أبى من ترابٍ خَلْقَهُ اللهُ آدما [10]

---

(١) انظر : كتاب سيبويه ٢/٢٨٧ ومعانى القرآن للزجاج ١/٨٧

(٢) انظر : المنصف لابن جنى ١/١٦٠ ومعانى القرآن للزجاج ١/٨٧

(٣) شرح ديوان الهذليين ١/٧ وانظر معانى القرآن للزجاج ١/٨٧

(٤) انظر : شرح شواهد الشافية ٤/١٥ (٥) انظر : الصاهل والشاحج ٤٤٠ ، ٤٨٦ ، ٦٦٦

(٦) ديوانه ق ٢٩/٥٧ ص ٨٦ وانظر البيت برواية أخرى فى : الصاهل والشاحج ٤٤٠

(٧) شرح شواهد الشافية ٤/١٥ وفى ديوانه ق ٢٩/٣٩ ص ٨٤ : « وأجلوا عن مدائنهم » وفى هامشه عن إحدى نسخ الديوان الخطية : « ونفخوا » .

(٨) ديوانه ص ١٣٧ وشرح شواهد الشافية ٤/١٨ ورسالة الغفران للمعرى ٣١٢ والخصائص ٣/٣٣٨ وشرح التصريف الملوكى ٣٢

(٩) ديوانه ص ٢١٧ والكامل للمبرد ٣/١٧٧ والصاهل والشاحج ٤٨٦ وإصلاح المنطق ٣٦ وشرح الملوكى ٣١

(١٠) البيت فى أمثال أبى عكرمة ١٢٨ مع مصادر أخرى فى هامشه .

وقول الآخر :

فإن النبيذ الصِّرد إن شُرْبَ وحده
على غير شيء أحرق الكَبِدَ جُوعُها(١)

وقول أبي خراش الهذلي :

ولحمِ امرئٍ لم تطعم الطيرُ مثلَه
عشية أمسى لا يبين من البَكْمِ(٢)

وقول الشاعر :

ألا ياليتهـا لُدْغَتْ
وأدْعَى كَيْمَ ذِي أرَقِ(٣)

وقول الآخر :

وأحفظُ من أخي ما حَفِظَ مني
ويكفيني البلاء إذا بلوتُ(٤)

وقول أبي النجم العجلي :

لو عُصِرَ منها البان والمسك انعصرْ(٥)

وقوله كذلك :

حتى إذا مارَضِيَ من كمالها(٦)

وقول الراجز :

رُجِمَ به الشيطانُ في هوائه(٧)

وقول الآخر :

قالت أراه دالفاً قد دُنِيَ لَهْ

ومن أمثال العرب قولهم « لم يُحْرَم من فُصِدَ له(٩) » .

والمرحلة الثالثة في تطور الأفعال المعتلة ، هي تلك المرحلة التي تسمى في عرف اللغويين المحدثين : « انكماش الأصوات المركبة » Kontraktion der Diphthonge

والأصوات المركبة في العربية هي : الواو والياء المسبوقتان بالفتحة ، في مثل : قَوْل و « بيت » ، فإن الملاحظ في تطور اللغات ، هو انكماش هذه الأصوات ، فتتحول الواو المفتوح ماقبلها إلى ضمة طويلة ممالة ، كقولنا في اللهجة المصرية مثلا : yōm و ṣōmonōm بدلا من : « يَوْم » و « نَوْم » و« صَوْم » ، وكذلك تنكمش الياء المفتوح ما قبلها ، فتتحول إلى كسرة طويلة ممالة ، كقولنا في اللهجة المصرية مثلا :

bēt و lēl و zēt «بدلا من : « بَيْت » و « ليل » و « زيت » وغير ذلك .

وهـذه المرحلة هي الشائعة في اللغة الحبشية ، في الأفعال الجوفاء(١١) ، ففيها

---

(١) الصاهل والشاحج ٤٤٠

(٢) شرح ديوان الهذليين ٣ / ١٣٤٥ وشرح شواهد الشافية ٤/١٨

(٣) الصاهل والشاحج ٤٨٦ (٤) مايجوز للشاعر في الضرورة ، للقزاز القيرواني ٨٢

(٥) شرح شواهد الشافية ٤/١٥ وإصلاح المنطق ٣٦ (٦) الصاهل والشاحج ٦٦٦

(٧) إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ٨

(٨) التمام في تفسير أشعار هذيل ٢٢٣ واللسان (دنا) ١٨/٣٠٠

(٩) انظر : كتاب الأمثال لمؤرج السدوسي ٥٠ مع مصادر أخرى في هامشه .

(١٠) انظر : C. Brockelmann, Syrische Grammatik 32 ff.

(١١) انظر : F. Praetorius, Aethiopische Grammatik 79

مثلا : kōma قام » ، šēṭa « باع » وغير ذلك . كما توجد هذه المرحلة أيضا ، فى اللهجات العربية التى تُميل ، فى مثل قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى» فى قراءة من أمال[1]. وفى ذلك يقول الزجاج : « والإمالة إلى الكسر ، لغة بنى تميم وكثير من العرب . ووجهها أنها الأصل فى ذوات الياء ، فأميلت لتدل على ذلك[2] » .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فى تطور تلك الأفعال المعتلة ، فتتمثل فى التحول من الإمالة إلى الفتح الخالص ، ذلك أن الحركة الممالة الناتجة من انكماش الصوت المركب ، كثيرا ما تتطور فى اللغات المختلفة فتتحول إلى فتحة طويلة[3] ، فمثلا كلمة « فأيْنَ » تطورت بعد سقوط الهمز منها إلى « فين » fēn ، بدلا من « فَيْن »، وفى بعض اللهجات : « وين » wēn المتطورة عن : « وَيْن » بعد سقوط الهمزة من «وأين» . غير أننا نسمع بعض أهالى مصر العليا ، ينطقون الكلمة الأولى بالفتح الخالص ؛ فيقولون : « فان » بدلا من : « فين » fēn الشائعة فيما عدا ذلك فى بلاد مصر ، أى أن التطور فى هذا الصوت المركب ، كان على النحو التالى : ay ← ē ← a

وهذا التطور الأخير ، هو الذى وصلت إليه العربية ، فى مثل : « قام » و« باع » « وخاف » و« دعا » و « قضى » و«رمى» كما وصلت إليه اللغة العبرية فى مثل :

šāṭ שָׁט	« وضع »
rām רָם	« ارتفع »
gār גָּר	« سكن »
āsā עָשָׂה	« صنع »
ʿānā עָנָה	« أجاب »
gālā גָּלָה	« جلا » .

وإلى مثل ذلك وصلت اللغة الآرامية ، فى نحو :

kām קָם	« قام »
hāṭ חָט	« خاط»
sām סָם	« وضع »
rmā رمى	« رمى »
bnā بنى	« بنى »
krā كرى	« دعا / سمى »

(١) انظر : التيسير فى القراءات السبع ٢٢٣ (٢) معانى القرآن للزجاج ١ / ١٤٤
(٣) انظر : التطور اللغوى وقوانينه ١٣٥

وقد حدث مثل ذلك فى لغة طيء ، فى الأفعال المعتلة المكسورة العين فى الماضى كذلك ، مثل قولهم ، « رَضَا » فى : « رَضِيَ » ، و« فَنَا » فى « فَنِيَ و« هُدَا » فى « هُدِيَ » ، وغير ذلك[1] .

تلك هى مراحل تطور الأفعال المعتلة. وقد رأينا كيف خلفت تلك المراحل « ركاما لغويا » فى العربية الفصحى ، واللغات السامية ، واللهجات العربية المختلفة . ومن كل ذلك نرى أن مايقوله نحاة العربية ، من أن (قال) مثلا ، أصلها : (قَوَلَ) صحيح ، بصرف النظر عن تعليلهم هذا ، بتحرك الواو وانفتاح ماقبلها ، وإن كان « ابن جنى » مثلا ، يزعم أن ذلك الأصل لم يوجد فى العربية يوماً ما ؛ إذ عقد فى « الخصائص » بابا سماه : « باب مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرا وحكما لا زمانا ووقتا » ، وقال فيه : « هذا الموضع كثير الإبهام لأكثر من يسمعه ، لاحقيقة تحته ، وذلك كقولنا: الأصل فى قام : قَوَمَ ، وفى باع : بَيَعَ . . . وفى استقام: استَقْوَمَ . فهذا يوهم أن هذه الألفاظ ، وما كان نحوها — مما يُدَّعى أن له أصلا يخالف ظاهر لفظه — قد كان مرّة يقال ، حتى إنهم كانوا يقولون فى موضع قام زيد: قَوَمَ زيد ، وكذلك : نَوِمَ جعفر ،وطَوُلَ محمد . : : وليس الأمر كذلك ، بل بضده ؛ وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به ، إلا على ما تراه وتسمعه . وإنما معنى قولنا إنه كان أصله كذا : أنه لوجاء مجيء الصحيح ولم يُعْتَل ،لوجب أن يكون مجيئه على ماذكرنا ؛ فأما أن يكون استعمل وقتا من الزمان كذلك ، ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ ، فخطأ لايعتقده أحد من أهل النظر[2] » .

ويحاول ابن جنى أن يؤكد فكرته تلك مرة أخرى ، فى كتابه : « سر صناعة الإعراب » ، غير أنه يعود فيعترف بأن الظاهرة اللغوية القديمة ، قد تبقى منها أمثلة تعين على معرفة الأصل ، وهو مانسميه هنا : « الركام اللغوى » ، يقول ابن جنى : « فبهذا ونحوه استدل أهل التصريف ، على أصول الأشياء المغيّرة ، كما استدلوا بقوله عز اسمه : استحوذ عليهم الشيطان ، على أن أصل استقام : استَقْوَمَ ،وأصل استباع : استَبْيَعَ ، ولولا ما ظهر من هذا ونحوه ،لما أقدموا على القضاء بأصول هذه الأشياء ، ولما جاز ادعاؤهم إياها[3] » .

وهكذا نرى ابن جنى ، لا يريد أن يعترف بوجود الأصل القديم » لهذه الظاهرة فى الواقع اللغوى ، غير أنه حين عثر على مثال من « الركام اللغوى » وهو قوله تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان » ، اضطر إلى الاعتراف به .

* * *

(١) انظر : كتاب سيبويه٢/٢٩٠ وخزانة الأدب ٤/١٤٩ (٢) الخصائص ١ / ٢٥٦

(٣) سر صناعة الإعراب ١/ ١٩٤ كما يقول المبرد فى المقتضب ٢ / ٩٧ : « وقد يجيء فى الباب الحرف والحرفان على أصولهما ، وإن كان الاستعمال على غير ذلك ، ليدل على أصل الباب ، فمن ذلك : استحوذ عليهم الشيطان ، وأغيلت المرأة » .

ومن أمثلة « الركام اللغوى » كذلك ، مانعرفه من إلحاق الفعل علامة تثنية أو جمع ، فى بعض ماروى لنا من أمثلة فى العربية ؛ فمن المعروف فى العربية الفصحى ، أن الفعل يجب إفراده دائما ، حتى وإن كان فاعله مثنى أو مجموعا ، أى أنه لاتتصل به علامة تثنية ولاعلامة جمع ، للدلالة على تثنية الفاعل أو جمعه ؛ فيقال مثلا : « قام الرجل » و « قام الرجلان » و « قام الرجال » بإفراد الفعل : « قام » دائما ؛ إذ لايقال فى الفصحى مثلا : « قاما الرجلان » ولا « قاموا الرجال » .

وعلى هذا النحو ، جاءت جمهرة الجمل الفعلية فى القرآن الكريم ؛ يقول الله تعالى مثلا : « وكأيّن من نبىّ قاتل معه ربيّون كثير » (آل عمران ٣ / ١٤٦) ولم يقل : قاتلوا معه . كما قال جل شأنه : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » (آل عمران ٣ / ١٢٢) ولم يقل : همّتا طائفتان .

تلك هى القاعدة المطردة فى العربية الفصحى ، شعرًا ونثرًا . غير أنه قد وردت فى كتاب الله تعالى بعض آيات ، لحق الفعل فيها علامة جمع للفاعل المجموع ؛ كقوله تعالى : « ثم عَمُوا وصَمُّوا » (المائدة ٥/٧١) وقوله عز وجل : « وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا » (الأنبياء ٢١ / ٣) .

وقد أكثر النحويون والمفسرون وعلماء اللغة العرب ، القول فى تخريج هاتين الآيتين الكريمتين ؛ فقد قال الإمام القرطبى ، فى تفسير الآية الأولى مثلا : « ثم عموا وصموا كثير منهم ، أى عَمِى كثيرٌ منهم وصَمَّ ، بعد تَبَيُّن الحق لهم بمحمد عليه السلام ، فارتفع (كثير) على البدل من الواو ، كما تقول : رأيت قومك ثلثيهم . وإن شئت كان على إضمار مبتدأ ، أى العُمْىُ والصُّمُّ كثير منهم . ويجوز أن يكون على لغة من قال : أكلونى البراغيث[1] » .

كما قال فى الآية الثانية : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » ، أى تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بين من هم فقال : الذين ظلموا ، أى الذين أشركوا ، فالذين ظلموا بدل من الواو فى (أسرّوا) ، وهو عائد على (الناس) المتقدم ذكرهم . قال المبرد : وهو كقولك : إن الذين فى الدار انطلقوا بنو عبد الله ، فبنو بدل من الواو فى : انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم ، أى هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ، أى يقول الذين ظلموا . وقول رابع : أن يكون منصوبا بمعنى : أعنى الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم ، فيه خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، وهو حسن . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير ، ومجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى[2] » .

---

(١) تفسير القرطبى ٦ / ٢٤٨

(٢) تفسير القرطبى ١١ / ٢٦٨ وانظر : معانى القرآن للفراء ١ /٣١٦

تلك هى آراء المفسرين والنحاة واللغويين العرب ، فى هذه الظاهرة، وهم فيها مقلّبون لكل الأوجه الممكنة فى العربية ، من التخريج والتأويل . غير أن مقارنة اللغات السامية أخوات العربية ، تؤدى إلى معرفة أن الأصل فى تلك اللغات ، أن يلحق الفعل علامةُ التثنيةوالجمع للفاعل المثنى والمجموع ، كما تلحقه علامة التأنيث عندما يكون الفاعل مؤنثا سواء بسواء[1] .

ففى اللغة العبرية مثلا :

וַיִּמְתוּ גַם-שְׁנֵיהֶם

מַחְלוֹן וְכִלְיוֹן

وقراءته :

(٢)
wayyāmōṯū gam šnēhem

maḥlōn wkilyōn

وترجمته الحرفية : « فماتا كلاهما محلون وكليون » . ومثل ذلك أيضا فيها :

לֹא יָקִימוּ וְשָׁבְעִים

Ἐκπιοῦσι

(٣)
lō yāqōmū

wrša'īm bammišpāṭ

وترجمته الحرفية : « لايقومون الأشرار بالعدل » .

ومثل ذلك فى الآرامية فى مثل :

وْلْمَا لَحْمُوْ

آسْتُوْا طَاتْلِ

dalmā ngōrōn

(٤)
ḥrāne battāk

وترجمته الحرفية: « لئلا يزنوا الآخرون بامرأتك » .

وكذلك الحال فى الحبشية فى نحو :

ወሶሎ፡ አሕዛብ

(٥)
wahōrū 'aḥzāb

---

(١) هذا على العكس مما يراه بروكلمان (Grundriss II 173) من أن ظواهر المطابقة تختلف فى كل لغة من اللغات السامية ، كاختلاف نظام الجملة فيها ، وأننا لا نستطيع إرجاع إحدى استعمالاتها فى هذين الأمرين إلى السامية الأم .

(٢) سفر روث ١/٥

(٣) سفر المزامير ١/٥

(٤) أحيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم ١/٣٣

(٥) انظر : F, Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 41

وترجمته الحرفية: « فعادوا الشعوب »[1].
ومثل ذلك أيضا فيها :

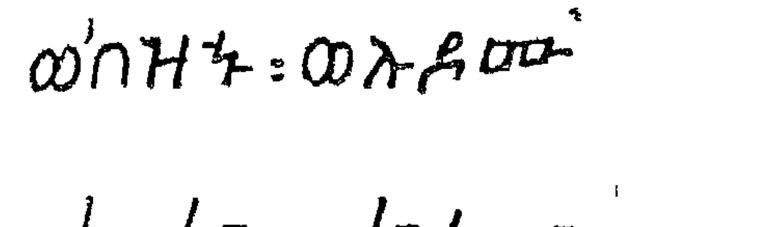

وترجمته الحرفية : « وكثروا أطفالهم » .

وقد تخلصت العربية الفصحى ، من هذه الظاهرة رويداً رويداً ، غير أن بقاياها ظلت حية عند بعض القبائل العربية القديمة ، كما بقيت بعض أمثلتها فى الفصحى ، وهو مانسميه هنا « الركام اللغوى » . وتعرف هذه الظاهرة عند النحاة العرب ؛ بلغة « أكلونى البراغيث » ، وقد عرفت عندهم بهذا الاسم ؛ لأن سيبويه هو أول من مثل لها فى كتابه ، واختار هذا المثال ؛ فقال : « فى قول من قال : أكلونى البراغيث[2] » كما قال فى موضع آخر : « ومن قال : أكلونى البراغيث ، قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه[3] » . وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى فى كتابه ، فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربونى قومك وضربانى أخواك ، فشبهوا هذه بالتاء ، التى يظهرونها فى : قالت فلانة ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث علامة ، وهى قليلة[4] » .

وقد حكيت هذه اللغة عن قبيلة « بلحارث ابن كعب » كما حكاها أهل البصرة عن قبيلة « طيئ » . وبعض النحاة يحكيها عن قبيلة « أزد شنوءة[5] » . وقد بقيت هذه الظاهرة شائعة فى كثير من اللهجات العربية الحديثة ؛ كقولنا مثلا فى لغة الخطاب فى مصر : « ظلمونى الناس » و « لامونى العواذل » و « زارونا الجيران » وغير ذلك . كما بقيت بعض أمثلتها فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واحتفظ به الكثير من أبيات الشعر العربى القديم .

أما القرآن الكريم ، فقد سبق الحديث عما فيه من أمثلة هذه الظاهرة . ومما جاء فى الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار[6] » بدلا من : تتعاقب فيكم ملائكة ، وإن كان بعض العلماء يرى فى هذا الحديث أنه مختصر من حديث طويل ، وأن الواو فيه ضمير يعود على اسم ظاهر متقدم ، وليس

---

(١) انظر : F, Praetorius, Aathiopische Grammatik, Chrestomathia 42

(٢) كتاب سيبويه ١/٥

(٣) كتاب سيبويه ١/٢٣٧

(٤) كتاب سيبويه ١/٢٣٦

(٥) انظر : الجنى الدانى للمرادى ١٧١

(٦) انظر : مغنى اللبيب ٢/٣٦٥ والقاموس المحيط (الواو) ٤/٤١٣ وبصائر ذوى التمييز ٥/١٤٦

علامة جمع ، وأن أصل الحديث : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار »(١). وقد وردت هذه الظاهرة فى بعض أحاديث الصحابة والتابعين. كما فى قول الحسن البصرى ، يصف طالب العلم : « قد أوكدتاه يداه ، وأعمدتاه رجلاه »(٢).

أما أبيات الشعر القديم ، التى وردت فيها هذه الظاهرة ، فما أكثرها فى دواوين الشعر العربى . ومن أمثلة ذلك قول عمرو بن ملقط الطائى ، وهو شاعر جاهلى :

ألفيتا عيناك عند القفا
أولى فأولى لك ذا واقيه(٣)

بدلا من : ألفيت عيناك . ومثله قول أمية بن أبى الصلت .

يلومونني فى اشتراء النخيل
أهلى فكلهم يعذل(٤)

بدلا من : يلومنى أهلى . وكذلك قول أبى عبد الرحمن العتبى :

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى
فأعرضن عنى بالخدود النواضر(٥)

أى : رأت الغوانى . كما يقول الفرزدق :

ولكن دِيَافِيٌّ أبوه وأمه
بحَوْرَان يعصرن السليط أقاربُه(٦)

أى : يعصر أقاربه . ويقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بنفسه
وقد أسلماه مُبعدٌ وحميمُ(٧)

أى : أسلمه مبعد وحميم . ويقول كذلك :

فإن نَفْسَ لا يبقوا أولئك بعدنا
لذى حُرمة فى المسلمين حريم(٨)

أى : لا يبقى أولئك . وكذلك يقول عروة بن الورد :

دعينى للغِنَى أسعى فإنى
رأيت الناس شرُّهم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونهم عليهم
وإن كانا له نسبٌ وخيرُ(٩)

---

(١) انظر : شرح الأشمونى على الألفية ٤٨/٢

(٢) انظر : الفائق للزمخشرى ٧٣/٣ والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ولسان العرب (عمد) ٢٩٦/٤ وانظر أحاديث أخرى فى إعراب الحديث للعكبرى ٢٨ ، ٣٩

(٣) شرح شواهد المغنى ١١٣ وأمالى ابن الشجرى ١٣٢/١ وشرح ديوان أبى تمام ١٠/٣

(٤) ديوانه ص ١٦ والدرر اللوامع ١٤٢/١ وأمالى ابن الشجرى ١٣٣/١ وشرح التصريح ٢٧٦/١ وهمع الهوامع ١٦٠/١ وإعراب الحديث للعكبرى ٤٠ وفى شرح شواهد المغنى ٢٦٥ : « عزاه السخاوى فى المفصل إلى أحيحة بن الجلاح » .

(٥) العينى على هامش الخزانة ٢٧٣/٢

(٦) ديوانه ص ٥٠ وكتاب سيبويه ١ /٢٣٦ وأمانى ابن الشجرى ١ / ١٣٣ وشرح ديوان أبى تمام ٢٢٤/١ وإعراب الحديث للعكبرى ٢٩ ، ٤٠ وشرح ابن يعيش ٨٩/٣ وهمع الهوامع ١ / ١٦٠

(٧) ديوانه ق ٣٥ / ٢ ص ١٩٦ وأمالى ابن الشجرى ١ / ١٣١ وشرح التصريح ١ /٢٧٧ وهمع الهوامع ١٦٠/١

(٨) ديوانه ق ٣٥ / ٨ ص ١٩٧

(٩) ديوانه ص ٩١ وشرح التصريح ٢٧٧/١

أى : كان له نسب وخير ؛ ومثله قول مجنون ليلى :

ولو أحدقوا بى الإنس والجن كلهم
لكى يمنعونى أن أجيئك لجيتُ[1]

أى : ولو أحدق الإنس والجن . ومثله قول الشاعر :

نصروك قومى فاعتززت بنصرهم
ولو أنهم خذلوك كنت ذليلا[2]

أى : نصرك قومى . ومثله أيضاً قول الآخر :

نُسيا حاتم وأوس لون فا
ضت عطاياك يا بن عبد العزيز[3]

أى : نسى حاتم وأوس .

وغير ذلك كثير فى الشعر العربى القديم : وقد استمرت هذه الظاهرة فى أشعار المولدين من الطائيين وغيرهم ؛ فها هو أبو تمام الطائى ، يمتلىء ديوان شعره بالأبيات التى جاءت على هذه اللغة ، مثل قوله :

شجىٌّ فى الحَشَى ترداده ليس يفتر
به صُمْنَ أمالى وإنى لمفطر

وقد قال عنه أبو العلاء المعرى فى هذا الموضع[4] : « يبين فى كلام الطائى أنه كان يختار إظهار علامة الجمع فى الفعل ، مثل قوله : صمن آمالى ؛ ولو قال : صام آمالى ، لاستقام الوزن . وقد جاء بمثل ذلك فى غير هذا الموضع » :

وقد جاءت بعض أمثلة هذه الظاهرة فى شعر المتنبى ؛ فمن ذلك قوله :

ورمى وما رمتا يداه فصابنى
سهم يعذّب والسهام تريح[5]

ويبدو أن هذه الظاهرة كانت شائعة فى عصر الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) الذى عدّها من اللحن[6] ، ورّد عليه الشهاب الخفاجى فقال : « وليس الأمر كما ذكره ؛ فإن هذه لغة قوم من العرب ، يجعلون الألف والواو حرفى علامة للتثنية والجمع ، والاسم الظاهر فاعلا . وتعرف بين النحاة بلغة أكلونى البراغيث ؛ لأنه مثالها الذى اشتهرت به ، وهى لغة طيىء ، كما قاله الزمخشرى . وقد وقع منها فى الآيات ، والأحاديث ، وكلام الفصحاء ، مالا يحصى »[7] .

* * *

ومن « الركام اللغوى » كذلك : مجىء ما تصرف من « أفْعَلَ » بالهمزة ، فى مثل قول ليلى الأخيلية :

تدلّت على حصٍّ ظماء كأنها
كرات غلام فى كساء مؤرنب[8]

---

(١) ديوانه ق ٥٨ / ٤ ص ٧٤
(٢) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢
(٣) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢
(٤) شرح الديوان للخطيب التبريزى ٢/٢١٤
(٥) ديوانه ص ١٦٥ وأمالى ابن الشجرى ١/١٣٣
(٦) درة الغواص ٦٥
(٧) شرح درة الغواص للخفاجى ١٥٢
(٨) ديوانها ق ٤/٢١ ص ٥٦ والمنصف ١/١٩٢

وقول الراجز :

وصاليات ككما يُؤَثقين[1].

وقول الآخر :

فإنه أهل لأن يُؤكرَمَا[2] :

وقد تخلصت العربية الفصحى من الهمز ، فى هذه الأمثلة وما شابهها ، بسبب ما يسمى « كراهة توالى الأمثال فى أبنية العربية » . وتتحقق هذه الكراهة فى الأصل فى المضارع المسند إلى ضمير المتكلم ، إذا الأصل فيه : « أؤكرم » فصار بعد حذف أحد المقطعين المتماثلين : « أكرِمُ » ثم حملت باقى صيغ المضارعة والتصاريف الأخرى على هذه الصيغة ، طرداً للباب على وتيرة واحدة[3]. ومع ذلك بقيت من « الركام اللغوى » لهذه الظاهرة ، تلك الأمثلة السابقة .

وإذا كانت العربية الفصحى ، قد آثرت تطبيق نظرية « المخالفة النوعية بين الحركات » فى جمع المؤنث السالم ، الذى ينصب بالكسرة بدلا من الفتحة[4] ، فإن الأصل وهو النصب بالفتحة ، قد بقى لنا فى شىء من الركام اللغوى ، فيما روى لنا عن أبى خيرة الأعرابى ، أنه قال : «استأصل اللهعِرْقاتَهم»[5] وفيما رواه الكوفيون عن بعض العرب من قولهم : سمعت لغاتَهم ، وقول الرياشى : سمعت بعض العرب يقول : أخذت إرَاتَهم[6]

* * *

ولعل من هذا « الركام اللغوى» كذلك ، ما وصل إلينا من نصب الجزأين بعد «ليت» ، فى مثل قول عبد الله بن مسلم الهذلى :

لكنه شاقه أن قيل ذا رجبٌ

ياليتعدة دهرى كلّهرجبا[7]

وقول العجاج :

ياليت أيامَ الصِّبا رواجعا[8]

وقول الشاعر :

ألا ياليتنى حَجَراً بوادٍ

أقام وليت أمى لم تلدنى[9]

ومن ذلك أيضاً قولهم فى الأمثال : «ليت القِسِىَّ كلها أرجُلا »[10] . ويقال إن

---

(١) المنصف لابن جنى ١٩٢/١

(٢) الإنصاف ٧ ، ٤٨ ، ٤٦١ والمنصف ٣٧/١ ، ١٩٢/١

(٣) انظر مقالتنا : كراهة توالى الأمثال فى أبنية العربية ٢١/١٩

(٤) انظر : فقه اللغات السامية ٧٨ (الفقرة ١٤١) .

(٥) انظر : الخصائص ٣٨٤/١ ، ٣٠٤/٣

(٦) انظر : منهج السالك لأبى حيان١١

(٧) مجالس ثعلب ٤٠٧/٢ وانظر شرح أشعار الهذليين ٩١٠/٢ والتمام لابن جنى ١٦٨

(٨) ملحق ديوانه ق ١/٣٣ ص ٨٢ وطبقات فحول الشعراء ٧٨/١ ولم ينسب فى كتاب سيبويه ٢٨٤/١ وخزانة الأدب ٢٩٠/٤ والتمام لابن جنى ١٦٨

(٩) همع الهوامع ١٣٤/١ والدرر اللوامع ١١٢/١ (١٠) مجمع الأمثال للميدانى٩٠/٢ والمستقصى ٣٠٢/٢

نصب « ليت » للجزأين لغة لبنى تميم[1]. ويقول ابن سلام : « وهى لغة لهم . سمعت أبا عون الحرمازى يقول : ليت أباك منطلقاً، وليت زيداً قاعداً »[2].

ولعل السرّ فى نصب الجزأين على هذا النحو ، أن « ليت » أصلها : « رأيت »[3] ؛ بدليل بقاء هذا الأصل ، بعد تخفيف الهمز ، فى اللهجات العامية ؛ إذ يقال فى مصر مثلا : « يا ريتنى غنى ! » . وقد قلبت راؤها لاماً منذ زمن بعيد فى الفصحى ، وحمل التمنى فى معناها ، على الترجى فى « لعل » ، فعملت عملها . ومع ذلك بقى لنا الأصل فى هذا « الركام اللغوى » الذى رأيناه فى الشواهد السابقة . وقد قاس الفراء والكسائى على تلك الشواهد ، بناء على مذهبهما فى توسيع دائرة القياس اللغوى[4] .

وهناك أمثلة أخرى لهذه النظرية — نظرية الركام اللغوى — فى العربية ، يضيق المقام عن ذكرها ، وكلها تبرهن بما لا يدع مجالا للشك ، على أن الظاهرة اللغوية عندما تتطور لا تموت أو تندثر تماماً ، وإنما تبقى منها بقايا تدل عليها ، وفى ذلك يقول العالم اللغوى فندريس : « التغيير لا يكون تاماً إطلاقاً ، فكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة ، إلى جانب الصيغ المستحدثة ، حتى لنلاحظ فى النظام العام للغات التى لها تاريخ طويل ، والتى عانت تطوراً ضخماً ، كالفرنسية أو الإنجليزية ، مزيجاً من النظم التى تضم حالات مختلفة»[5]

* * *

أما السبب الثانى من أسباب الشذوذ فى اللغة ، وهو ما سميناه من قبل : « بدايات التطور » لظاهرة من الظواهر اللغوية ، فإن خير أمثلته مانراه فى العربية الفصحى ، فى صيغتى : « تفعّل » و « تفاعل » ، إذ رويت لنا فيهما صورة أخرى هى : « اتفعّل » و « اتفاعل » .

والصورة الأولى لهاتين الصيغتين أقدم من الثانية ، وعليها جمهرة الأفعال التى رويت لنا فى الفصحى ، مثل : تعلّم ، وتكلّم وتقاتل ، وتضارب ، ومنها فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ثم دنا فتدلّى » (النجم ٥٣/٨) وقوله جل شأنه : « إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا ، فإذا هم مبصرون » (الأعراف ٧/٢٠١) وقوله عز وجل : « فمن تصدق به فهو كفارة له » (المائدة ٥/٤٥) وقوله سبحانه وتعالى : « ومن تطوّع خيراً فإن الله شاكر عليم » (البقرة ٢ / ١٥٨) وقوله جل وعلا : « قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله » . (النمل ٢٧ / ٤٩) .

---

(١) انظر : خزانة الأدب ٤/٢٩١ (٢) طبقات فحول الشعراء ١/٧٨

(٣) انظر : C. Brockelmann, Grundriss I 137; II 30.

(٤) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ٨/٨٤ (٥) اللغة لفندريس ٤٢٣

كما روى لنا من الصورة الثانية ، بعض الأمثلة فى العربية الفصحى ، ومنها فى القرآن الكريم قوله تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت » (يونس ١٠/٢٤) وقوله عز وجل: « لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب » (الصافات ٣٧/٨) وقوله سبحانه وتعالى : « لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصّدّق وأكن من الصالحين » (المنافقون ٦٣/١٠)وقوله جل شأنه : « بل ادّارك علمهم فى الآخرة » (النمل ٢٧/٦٦) .

وهذا التطور حدث أولا فى مضارع صيغتى : « تفعّلَ » و « تفاعَلَ » ؛ إذ تتأثر التاء فيهما — بعد تسكينها للتخفيف — بفاء الفعل ، إذا كانت صوتاً من أصوات الصفير كالسين والشين ، أو الأصوات الأسنانية ، كالدال والتاء ، فتقلب صوتاً من جنس هذه الأصوات ، ثم قيست على ذلك صيغة الفعل الماضى ، فالفعل : « اذّكّر» مثلا ، مقيس على: « يذّكّر» . وأصله — كما قلنا : « يتّذكّر» بتسكين التاء للتخفيف من : « يتّذكّر » .

ولقد كانت هذه الظاهرة فى سبيل التطور فى العربية الفصحى ، عندما جاء الإسلام ؛ ولذلك نجد أمثلتها فى القرآن الكريم ، جنباً إلى جنب فى بعض الأحيان ، مع الصيغ القديمة التى لم يحدث فيها تطور . ونحن نعد هذا دليلا على أن التطور اللغوى ، فى أية ظاهرة لغوية ، لايحدث فجأة ، فيقضى بين يوم وليلة على كل أثر القديم :

فى القرآن الكريم أمثلة كثيرة للصورتين الحديثة والقديمة ، فى سياق لغوى متشابه إلى حد كبير ، مما يؤيد ما نذهب إليه من أن معناهما واحد ، وأن إحدى الصورتين أصل للأخرى ، ومثال ذلك قوله تعالى : « والله يحب المطهرين » (التوبة ٩/١٠٨) إلى جانب قوله فى آية أخرى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (البقرة ٢/٢٢٢) كما يقول الله عز وجل : « قالوا اطيرنا بك وبمن معك » (النمل ٢٧/٤٧) إلى جانب قوله فى آية أخرى : « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم » (يس ٣٦/١٨) يقول سبحانه وتعالى : « أفلم يدّبّروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين » (المؤمنون ٢٣/٦٨) إلى جانب قوله فى موضع آخر : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٤٧/٢٤) . ومثله قوله جل شأنه : « وما يذّكر إلا أولو الألباب » (البقرة ٢/٢٦٩) إلى جانب قوله فى آية أخرى : « إنما يتذّكر أولو الألباب » (الرعد ١٣/١٩)

بل إن الآية الواحدة لتحتوى فى بعض الأحيان ، على الصورتين معاً ، كقوله تعالى: « ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الألباب» (ص ٣٨/٢٩) .

وقد ظل هذا التطور سائراً فى طريقه فى لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده ، وقضى

على الظاهرة القديمة ؛ ففى اللهجة العامية المصرية ، نقول مثلا : فلان اصدّعت دماغه واسّرّع فى كلامه . ولا أثر للصيغة القديمة فى لهجات الخطاب ؛ إذ لايقال فيها مثلا : فلان تصدّعت دماغه ، وتسرّع فى كلامه .

وكذلك الحال فى صيغة : « تفاعل » ؛ إذ ماتت كذلك ، وحلت محلها صيغة « اتفاعل » التى شاهدنا مولدها فى عصر نزول القرآن الكريم ؛ إذ نقول الآن فى لهجات الخطاب : فلان اشّاتم مع فلان ، واصّالحوا سَوَا ؛ بدلا من : تشاتم ، وتصالحوا .

بل لقد سادت صيغتا : اتفعّل ، واتفاعل ، فى اللهجة العامية المصرية ، حتى ولو لم يكن فى الأصل صوت من أصوات الصفير ، أو الأصوات الأسنانية ، كقولنا مثلا فى لهجة الخطاب : « اتفرّج » و « اتبهدل » وغير ذلك .

* * *

ومن أمثلة بدايات التطور فى الظواهر اللغوية فى العربية الفصحى كذلك ، ماحدث فى صيغة : « انْفَعَل » ، منذ عصور العربية الأولى ؛ فقد كانت هذه الصيغة موضوعة للدلالة على مطاوعة الفعل الثلاثى ، أى قبول أثر هذا الفعل ؛ مثل : « كسرت الإناء فانكسر » و « فتحت الباب فانفتح »[1] .

ولما كان فاعل هذا الفعل المطاوع ؛ ضميراً يعود على مفعول الفعل السابق ، أصبح الفعل المطاوع مشبهاً فى المعنى ، للمبنى للمجهول ، فى نحو قولك : « كُسِر الإناء » و « فُتِح الباب » ؛ إذ لا يذكر مع المبنى للمجهول غالباً ، إلا ماهو مفعول به فى المعنى وأصبح من الممكن أن ينوب هذا المطاوع مناب المبنى للمجهول .

وقد بدأت هذه الظاهرة فى التطور ، فى عصر نزول القرآن الكريم ، ولذلك نجد الفعل المطاوع وارداً فى النص القرآنى ، فى سياق الأفعال المبنية للمجهول فى بعض الأحيان ، كما فى قوله تعالى : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجِّرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت » (الانفطار ٨٢ / ٥) وقوله سبحانه وتعالى : « إذا الشمس كُوِّرت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العشار عطِّلت » (التكوير ٨١ /١ — ٤) وقوله عز وجل : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقّت » (الانشقاق ٨٤/١ — ٢) .

تلك كانت بداية التطور فى هذه الظاهرة حينذاك . قد ظل هذا التطور سائراً على ألسنة العامة ، وفى لهجات الخطاب ، شيئاً

---

(١) فى المخصص لابن سيدة ١٤ / ١ : « ومعنى قولنا : (مطاوعة) أن المفعول به لم يمتنع مما رامه الفاعل ، ألا ترى أنك تقول فيما امتنع مما رمته : دفعته فلم يندفع ، وكسرته فلم ينكسر ، أى أوردت أسباب الكسر عليه فلم تؤثر » .

فشيئاً ، حتى كادت صيغة المبنى للمجهول الأصلية ، تندثر فى كثير من اللهجات العربية الحديثة ، وينوب عنها فى الدلالة على الجهل بالفاعل ، صيغة : « انفعل » ؛ إذ يقول العامة فى مصر مثلا : « فلان انضرب علقة سخنة ، وعيط لما انفلق م العياط » ؟

وما حدث فى هذه اللهجات الحديثة ، حدث مثله تماماً فى اللغة العبرية القديمة ؛ إذا أصبح المبنى للمجهول فيها من الثلاثى على وزن : נִפְעַל nif'al الذى يقابل صيغة « انفعل » فى العربية ، وضاعت منها الصيغة الأصلية للمبنى للمجهول كذلك .

* * *

أما السبب الثالث من أسباب الشذوذ فى اللغة ، وهو أن يكون ذلك الشاذ شيئاً مستعاراً من نظام لغوى مجاور ، فقد فطن إليه « ابن جنى » حين قال : « وما اجتمعت فيه لغتان أو ثلاث ، أكثر من أن يحاط به ، فإذا ورد شىء من ذلك ، كأن يجتمع فى لغة رجل واحد لغتان ، فقد يجوز أن تكون لغته فى الأصل إحداهما ، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى ، وطال بها عهده ، وكثر استعماله لها ، فلحقت لطول المدة ، واتصال استعمالها بلغته الأولى »[1] .

كما يعيب « ابن جنى » على اللغويين العرب أنهم « جمعوا أشياء على وجه الشذوذ عندهم ، وادعوا أنها موضوعة فى أصل اللغة على ما سمعوه بأخرة من أصحابها ، وأنسوا ما كان ينبغى أن يذكروه ، وأضاعوا ما كان واجباً أن يحفظوه » ، ثم يقول بعد ذلك : « واعلم أن أكثر ذلك وعامته ، إنما هو لغات تداخلت ، فتركبت . هكذا ينبغى أن يعتقد وهو أشبه بحكمه العرب »[2] .

ومن الأمثلة على ذلك فى العربية الفصحى مانراه فيها من كلمات غير مهموزة فى نصوصها ؛ فمن المعروف أن الفصحى اتخذت طريق تحقيق الهمز ، وهو الأمر الذى عرفته قبيلة « تميم » كذلك . كما روى لنا أن بعض القبائل العربية ، لم تكن تهمز فى كلامها ، ومنها قبيلة « قريش » . قال أبو زيد الأنصارى : « أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر . وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا »[3] .

والنبر هو : الهمز ؛ قال ابن منظور : « والنبر : همز الحرف ، ولم تكن قريش تهمز فى كلامها . ولما حج المهدى ، قدم الكسائى يصلى بالمدينة ، فهمز فأنكر أهل المدينة عليه ، وقالوا : تنبر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالقرآن ؟ »[4] .

---

(١) الخصائص ١/٣٧٢

(٢) الخصائص ١/٣٧٤ — ٣٧٥

(٣) مقدمة لسان العرب ١/٤

(٤) لسان العرب (نبر) ٧/ ٤٠

كما يقول الإمام الرضى : « اعلم أن الهمزة ، لما كانت أدخل الحروف فى الحلق ولها نبرة كريهة ، تجرى مجرى التهوّع ، ثقلت بذلك على لسان المتلفظ بها ، فخففها قوم — وهم أكثر أهل الحجاز ، ولا سيما قريش ؛ روى عن أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه : نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام ، نزل بالهمز على النبى صلى الله عليه وسلم ، ما همزنا — وحققها غيرهم والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف ، والتخفيف استحسان »[1].

ومع ذلك كله ، فإننا نرى فى الفصحى أمثلة غير مهموزة ، وحقها الهمز ، ولا تفسير لها إلا بذلك المبدأ ، وهو الاستعارة من نظام لغوى مجاور . ومن أمثلة ذلك كلمة « ناس» ؛ فإن الأصل فيها هو كلمة : « أناس » المستعملة فى الفصحى كذلك[2] . والدليل على أن الهمزة أصلية فى الكلمة ، وجودها فى بعض اللغات السامية كالعبرية ؛ فهى فيها : آناشيم

وهو فيها جمع مفرده : إيش

بمعنى : « رجل » ، والياء فيه بدل من النون ، بدليل وجودها فى الجمع ، كما أن هناك مفرداً نادر الاستعمال فى العبرية ، (الأعراف ١١١/٧ والشعراء ٣٦/٢٦) ، يحتوى على هذه النون كذلك وهو : إنوش ويقابل فى العربية كلمة : « إنس » .

* * *

ومن أمثلة هذه الظاهرة كذلك : الفعل « يرى » فهو مضارع : « رأى » وعينه همزة — كما ترى — غير أن العربية الفصحى ، التى آثرت تحقيق الهمز فى نطقها ، هى التى استعارت هذا النطق الخالى من الهمز ، من قريش ومن جرى مجراها من القبائل المجاورة . ومثل ذلك تماماً نراه فى فعلى الأمر : « مر» و « سل » فى الابتداء فقط . وماضى هذه الأفعال الأربعة مهموز — كما تعرف — وهو : « أكل » و « أخذ » و « أمر » و « سأل » .

وكذلك كلمة : « النبى » ، تستعملها الفصحى بلا همز ، مع أن فعلها هو : « تنبأ » . وإذا كانت العربية الفصحى تهمز الكلمات : « أرجأ » و « الكفء » و «برأ» و« ذرأ » ، فإن « مرجون » فى قوله تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله» (التوبة ١٠٦/٩) لاتكون حينئذ إلا استعارة من نظام لغوى مجاور ، مثلها فى ذلك مثل : « أرجه » فى قوله عز وجل : « قالوا أرجه وأخاه »

---

(١) شرح الشافية ٣١/٣

(٢) يشيع سقوط الهمزة فيها مع أداة التعريف ، ويندر فى غير ذلك . انظر الخصائص ٣ / ١٥٠ وانظر أيضا : Mölcke, Zur Grammatik, S. 16

و « كفواً » فى قوله سبحانه : « ولم يكن له كفواً أحد » (الإخلاص ٤/١١٢)، و« البرية » فى قوله جل شأنه : « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » (البينة ٦/٩٨) ، و « ذرية » فى قوله عز اسمه : « هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء» (آل عمران ٣/٣٨) . وكذلك الحال فى كلمة « الله » التى يقول فيها سيبويه : « وكان الاسم — والله أعلم — إله ، فلما أدخل فيه الألف واللام ، حذفوا الألف ، وصارت الألف واللام خلفاً منها »[1].

* * *

وإذا كانت حركة الضم فى ضمير النصب والجر للغائب المفرد المذكر ، تتأثر بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء ، فتقلب الضمة كسرة[2] ، فى العربية الفصحى ، فيقال مثلا : « ضربتِه » و « عليهِ » بدلا من : « ضربتُه »و « عليهُ » ، فإن القرآن الكريم وهو الممثل الأعلى لهذه العربية ، قد جاءت به بعض الأمثلة ، التى لم يحدث فيها مثل هذا الأثر الصوتى ، وهى قوله تعالى : « وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكـــره » (الكهف ١٨/٦٣) وقوله عز وجل : « ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله » (الفتح ٤٨/١٠) ، وقد انتقل إليها ذلك من اللغة الحجازية ، التى حافظت على الأصل فى حركة هذا الضمير يقول سيبويه : « فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة . . وذلك قولك : مررت بهى قبل ، ولديهى مال ، ومررت بدارهى قبل، وأهل الحجاز يقولون : مررت بهو قبل ، ولديهو مال ويقرءون : فخسفنا بهـــو وبدارهو الأرض »[3]، كما يقول المبرد « فأما أهل الحجاز خاصة، فعلى الأمر الأول فيها ، يقرءون: فخسفنا بهو وبدارهو الأرض ومن لزم اللغة الحجازية قال : عليهُ مال »[4]

* * *

وهذا مثال أخير لظاهرة الشذوذ ، عن طريق انتقال اللغة ، فمن خصائص اللغة الحجازية ، فك الإدغام فى الأفعال المضارعة المجزومة بالسكون ، والأمر المأخوذ منها . وقد جرى القرآن الكريم على لغتهم إلا فى أمثلة قليلة ، جاءت بالإدغام على لغة بنى تميم . وقد فطن إلى ذلك قدامى اللغويين

---

(١) كتاب سيبويه ١/٣٠٩ وانظر الخصائص ٣/١٥٠

(٢) انظر : التطور اللغوى وقوانينه ١١٥

(٣) كتاب سيبويه ٢/٢٩٤ (٤) المقتضب ١/٣٧

العرب ؛ قال الزجاج : « وأهل الحجاز يظهرون التضعيف . وهذه الآية : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً) ، فيها اللغتان جميعاً ، فقوله تعالى : (إن يمسسكم)على لغة أهل الحجاز ، وقوله : (لايضركم) على لغة غيرهم من العرب »[1]. كما قال الزركشي[2]: « أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلا فإنه نزل بلغة التميميين ، فمن القليل إدغام : «ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب »

(الحشر ٤/٥٩) فإن الإدغام فى المجزوم والاسم المضاعف لغة تميم ، ولهذا قل . والفك لغة أهل الحجاز ، ولهذا كثر ، نحو : « ومن يرتدد منكم عن دينه » (البقرة٢/٢١٧) و « فليملل وليه بالعدل » (البقرة ٢/٢٨٢) و « فاتبعونى يحببكم الله » (آل عمران ٣/٣١) و « من يشاقق الله ورسوله » (الأنفال ٨/١٣) و « احلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » (طه ٢٠/٢٧) وغير ذلك كثير .

والله أعلم .

الدكتور رمضان عبد التواب
الخبير بالمجمع

---

(١) معانى القرآن للزجاج ١/٤٧٦ (٢) البرهان ١/٢٨٥

مصادر البحث

المصـادر العربية :

١ ــ أحيقار ، حكيم من الشرق الأدنى القديم ، لأنيس فريحة ــ بيروت ١٩٦٢ م .

٢ ــ الأشباه والنظائر فى النحو ، للسيوطى ــ حيدر آباد بالهند ١٣٥٩ هـ .

٣ ــ إصلاح المنطق ، لابن السكيت ــ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ــ القاهرة ١٩٥٦م

٤ ــ إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه ــ القاهرة ١٩٤١ م .

٥ ــ الاقتراح فى علم أصول النحو ، للسيوطى ــ حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .

٦ ــ الأمالى ، لابن الشجرى ، حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .

٧ ــ الأمثال ، لأبى عكرمة الضبى ــ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ــ دمشق ١٩٧٤ م .

٨ ــ الأمثال ، لأبى فيدمؤرج السدوسى ــ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ــ القاهرة ١٩٧١م

٩ ــ البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ القاهرة ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ م .

١٠ ــ التطور اللغوى وقوانينه ، للدكتور رمضان عبد التواب ــ مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ١٩٧٥ م .

١١ ــ تفسير القرطبى = الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى ــ القاهرة ١٩٦٧ م .

١٢ ــ التمام فى تفسير أشعار هذيل ، لابن جنى ــ تحقيق أحمد ناجى القيسى وآخرين ــ بغداد ١٩٦٢ م .

١٣ ــ التيسير فى القراءات السبع ، لأبى عمرو الدانى ــ استانبول ١٩٣٠ م .

١٤ ــ الجنى الدانى فى حروف المعانى ، للمرادى ــ تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ــ حلب ١٩٧٣ م .

١٥ ــ خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادى ــ بولاق ١٢٩٩ هـ .

١٦ ــ الخصائص ، لابن جنى ــ تحقيق محمد على النجار ــ القاهرة ١٩٥٢ ــ ١٩٥٦ م .

١٧ ــ الدرر اللوامع على همع الهوامع ، لأحمد بن الأمين الشنقيطى ــ القاهرة ١٣٢٨ هـ .

١٨ ــ ديوان الأخطل ــ نشر أنطون صالحانى ــ بيروت ١٨٩١ م .

١٩ ــ ديوان أمية بن أبى الصلت ــ تحقيق شولتهس ــ ليبزج ١٩١١ م .

٢٠ – ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات – تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم – بيروت ١٩٥٨ م .
٢١ – ديوان العجاج والرفيان – نشر أهلورت – برلين ١٩٠٣ م .
٢٢ – ديوان عروة بن الورد، بشرح ابن السكيت–تحقيق عبد المعين الملوحى–دمشق ١٩٦٦م
٢٣ – ديوان الفرزدق – نشر عبد الله إسماعيل الصاوى – القاهرة ١٩٣٦ م .
٢٤ – ديران القطامى – تحقيق بارت – ليدن ١٩٠٢ م .
٢٥ – ديوان ليلى الأخيلية – جمع وتحقيق خليل وجليل إبراهيم العطية – بغداد ١٩٦٧ م .
٢٦ – ديوان المتنبى – وضع عبد الرحمن البرقوقى – القاهرة ١٩٣٨ م .
٢٧ – ديوان مجنون ليلى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة (بدون تاريخ) .
٢٨ – رسالة الغفران ، لأبى العلاء المعرى– تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء – القاهرة ١٩٦٣ م .
٢٩ – سر صناعة الإعراب ، لابن جنى – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٤ م .
٣٠ – شرح أشعار الهذليين ، للسكرى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة ١٩٦٥ م .
٣١ – شرح التصريح ، للشيخ خالد الأزهرى – القاهرة ١٣٢٥ هـ .
٣٢ – شرح ديوان أبى تمام ، للتبريزى – تحقيق محمد عبده عزام – القاهرة ١٩٥١ وما بعدها .
٣٣ – شرح شافية ابن الحاجب ، للأستراباذى – تحقيق محمد الزفزاف وآخرين – القاهرة ١٣٥٦ هـ .
٣٤ – شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادى – تحقيق محمد الزفزاف وآخرين – القاهرة ١٣٥٦ هـ .
٣٥ – شرح شواهد المغنى ، للسيوطى – بتصحيح الشنقيطى – القاهرة ١٣٢٢ هـ .
٣٦ – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد –القاهرة ١٩٤٥ م .
٣٧ – شرح مراح الأرواح ، لديكنقوز – القاهرة ١٩٣٧ م .
٣٨ – شرح الملوكى فى التصريف ، لابن يعيش – تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة – حلب ١٩٧٣ م .
٣٩ – شرح ابن يعيش للمفصل – القاهرة (بدون تاريخ) .
٤٠ – الصاهل والشاحج ، لأبى العلاء المعرى – تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء – القاهرة ١٩٧٥ م .

٤١ ــ الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ــ تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ــ القاهرة ١٩٥٢ م .
٤٢ ــ طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ــ تحقيق الشيخ محمود شاكر ــ القاهرة ١٩٧٤ م .
٤٣ ــ العينى = شرح الشواهد الكبرى ــ على هامش خزانة الأدب للبغدادى ــ بولاق ١٢٩٩ هـ .
٤٤ ــ فقه اللغات السامية ، لكارل بروكلمان ــ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب ــ الرياض ١٩٧٧ م .
٤٥ ــ الكامل فى اللغة والأدب ، للمبرد ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته ــ القاهرة ١٩٥٦ م .
٤٦ ــ الكتاب ، لسيبويه ــ بولاق ١٣١٦ ــ ١٣١٧ هـ .
٤٧ ــ كراهة توالى الأمثال فى أبنية العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب ــ مجلة المجمع العلمى العراق ــ المجلد الثامن عشر ١٩٦٩ م .
٤٨ ــ لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى ــ بولاق ١٣٠٠ ــ ١٣٠٧ هـ .
٤٩ ــ اللغة لڤندريس ــ ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ــ القاهرة ١٩٥٠ م .
٥٠ ــ ما يجوز للشاعر فى الضرورة ، للقزاز القيروانى ــ تحقيق المنجى الكعبى ــ تونس ١٩٧١ م.
٥١ ــ مجالس ثعلب ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ القاهرة ١٩٦٠ م .
٥٢ ــ المخصص فى اللغة ، لابن سيدة الأندلسى ــ بولاق ١٣١٦ ــ ١٣٢١ هـ .
٥٣ ــ المرتجل شرح الجمل ، لابن الخشاب ــ تحقيق على حيدر ــ دمشق ١٩٧٢ م .
٥٤ ــ المزهر ، للسيوطى ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ــ القاهرة ١٩٥٨ م .
٥٥ ــ المستقصى فى أمثال العرب ، للزمخشرى ــ حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٢ م .
٥٦ ــ معانى القرآن وإعرابه ، للزجاج ــ تحقيق عبد الجليل عبده شلبى ــ بيروت ١٩٧٢ م .
٥٧ ــ معانى القرآن ، للفراء ــ تحقيق الشيخ محمد على النجار ــ القاهرة ١٩٥٥ م وما بعدها .
٥٨ ــ مغنى اللبيب ، لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ القاهرة (بدون تاريخ) .
٥٩ ــ المقتضب ، لأبى العباس المبرد ــ تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ــ القاهرة ١٩٦٣ ــ ١٩٦٨ م .
٦٠ ــ المنصف ، لابن جنى ، شرح التصريف للمازنى ــ تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ــ القاهرة ١٩٥٤ م .
٦١ ــ منهج السالك ، لأبى حيان الأندلسى ــ تحقيق سيدنى جلازر ــ واشنطن ١٩٤٧ م .
٦٢ ــ همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع ، للسيوطى ــ القاهرة ١٣٢٧ هـ .

المصـــادر الأفرنجية :

1.— C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitisehen Sprachen, Bd. I-II, Berlin 1908—1913.

2.— C. Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955.

3.— A. Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache, Graz 1959.

4.— O. Jespersen, Die Sprache, ihre Natur, Entwicklung und Entstehung, Heidoltorg 1925.

5.— Th. Nöldeke, Zur Grammatik des classischen Arabisch, bearbeitet und mit Zusätzen versehen von Anton Spitaler, Darmstadt 1963.

6.— F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, New York 1955.